والاجتماعية، جبهة لا يكون فيها كتّاب مراءون يخدعون الأفراد والجماعات لينسموا بوسم الإصلاح الاجتماعى

وأعضاء الجبهة المرجوة لن يكونوا من الباكين لشقاء العمال والصناع والفلاحين بدموع التماسيح ، ولكنهم سيكونون رجالاً صادقين يؤمنون بأن الشهرة كالرزق فيها حلال وحرام ، ويتقربون إلى الله بالصدق ، ولو عرّضهم الصدق لغضب الجاهلين وكيد المتجاهلين

وبالله أستعيذ من جهل أولئك وسفه هؤلاء !

وأنا بعد هذا أنتظر آراء المفكرين الصادقين فيما قدمتُ من بينات

زكى مبارك

٨ — أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

النقص والتكامل — الانسانية الواحدة — من وحى الحرب العصرية — مقدمات الوحدة — عصر القبيلة الأممى — الأقدار تفصل الجسم الواحد — دنم وهم — الحيرة في أمريكا — أم مجنونة وبنت عاقلة — من توحيد الأرباب إلى توحيد الانسان — لا حياة مع هذه الحرب — قيامة صناعية — سلم طويلة من حرب خاطفة — البغض من السيف — دم الحرب دم مخاض — معان تبقى من أمم تفنى

ألمس فى نفسى وفى كل فرد عرفته من الناس مهما كان عظيماً نقصاً أجد تكميله عند غيرى وغيره . وهذا مما يؤكد فى فكرى أن الدولة أولاً جسم واحد يكمل بعضه بعضاً ولا يستقل عضو منه بحياته إلا ظهر مبتوراً ناقصاً فيه تشويه . . . وكماله وجماله فى أن يَتَضامّ إلى غيره ويتعاون ويصبر على مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع إدراك الكمال المنشود . . .

وكذلك ألمس فى كل أمة وحدها نقصاً أجد تكميله لدى غيرها . وهذا مما يؤكد فى فكرى ثانياً أن الأمم فى المجموعة البشرية كالأفراد فى مجموع الأمة الواحدة ، كل منها لها ميزة تكمل غيرها ، وفيها نقص يكمله غيرها . . .

فالفرد الكامل الذى يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق

والأمة الكاملة التى تستطيع أن تحيا وحدها لم تخلق كذلك ولن تخلق

تلك حقيقة توحى إلينا الإيمان بالإنسانية الواحدة ، وتحتم علينا أن نتناسى مواريث الوحشية القديمة والجهالات الأولى ، وأن نفكر للحياة الواحدة المستقبلة التى يصح أن تنتظم الإنسانية جميعها بعد أن ذهب عنها دور الطفولة التى كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة ، ومواردها وأرزاقها محدودة

ويعظم فى نفسى يوماً بعد يوم وجه الشبه بين سير الحياة بالفرد الواحد من طفولته إلى رشده إلى شبابه إلى كهولته ، وبين سير الحياة بالإنسانية جميعها من طفولتها إلى شبابها إلى كهولتها . . .

وإنى أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالإنسانية كلها هى خطوات سيرها بالإنسان الواحد . . . وكل من يتفرس فى الحياة الاجتماعية يجدها كحياة الفرد سواء بسواء فى تدرجها من الغرائز والعواطف إلى الرشد والعقل

وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيراً ويكون أنانياً فرديًا فى حاجاته ، ويحطم ما أمامه ولا يبالى النتائج ؛ كذلك الإنسانية فى دور طفولتها : أنانية غضوب تحطم كل شىء فى سبيل منفعتها الضيقة

ولكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن تلجأ إلى أساليب الأطفال وغرائزهم وتحبسها عن الغضب والتحطيم ، إلا إذا امتدت فيها حياة الطفولة لضعف التربية ، أو للشذوذ أو عدم تقدير النتائج . . . كذلك الإنسانية لا بد أن تصل إلى هذه المرحلة فى يوم ما قريب أو بعيد . . .

يوحى إلىّ ذلك ما أراه فى الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس وجنون الإنسان وقسوة الآلة ، بحيث لا يمكن مطلقاً أن تحتمل الحياة بعد هذه الحرب إذا لم تقمع الغرائز والحاقات التى أثارتها ، وإذا لم يوضع أساس حياة مشتركة للانسانية الواحدة التى ابتدأت وحدتها تبدو وتستدلن فى هذه المجموعات الكبيرة من الأمم ، وهذه الرابطات الوثيقة بينها ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح ، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة ، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس ، ومن الدراسات المنظمة والمؤتمرات الجامعة والجمعيات العالمية ، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع ، واختلاط الأجناس وتفكير أرباب الأعمال فى الأسواق العالمية ، ومن تبادل

تعلم اللغات والأغاني والرقصات وأدوات الزينة . ومن « الصندوق السحري » : الراديو الذي سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الآباء الذين نشأوا محجوزين محجوبين بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم ، ومن « الصورة السحرية » السينما التي تنقل الدنيا وناس الدنيا وتعرض الجميع في حجرة ضيقة

* * *

يصح أن نسمي عصرنا الحاضر « عصر القبيلة الأممي » والإنسانية كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة . واشتداد التناحر بين مجموعات الأمم المختلفة في هذا العصر هو صورة مما كان يحدث بين القبائل في الأمة الواحدة

ولم يحمل القبائل المتعادية في القديم على الصلح الدائم والاندماج والوحدة الشعبية إلا عنف ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة . فلما رأت أنه لا حياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة تنازلت كل قبيلة عن بعض حقوقها وحرياتها ورضوا ذلك إما بضغط الأقوى وإما بالإدراك الصحيح للموقف ومراعاة مقتضيات الحياة

وكذلك كان الأمر في تكوين الأمبراطوريات المختلفة : حروب ونزاع مستمر وتخريب الممالك والملوك ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن بعض المصالح في سبيل المصلحة التي لا غنى عنها للجميع

وكذلك تكونت الولايات المتحدة الأمريكية من جنسيات ومذاهب مختلفة بعد حروب ونزاع دمر حياتهم في بعض مراحل تاريخهم ...

وكذلك وجدت البذرة التي لا بد أن تنمو بعد هذه الحرب : وهي بذرة « عصبة الأمم » التي سيحافظ الغالب والمغلوب في هذه الحرب على إيجادها وجوداً فعالاً مسلحاً ، لا وجوداً صورياً كالذي كان عقب الحرب الماضية

وعندي يقين ثابت أن الأقدار تفصل الآن بالحديد والنار جسم الإنسانية الواحدة ذات الحكومة الواحدة كما فصلت جسم كل أمبراطورية على حدة كما فصلت جسم كل أمة على حدة كما فصلت جسم كل قبيلة على حدة كما فصلت جسم كل أسرة على حدة كما فصلت كل جسم على حدة كما فصلت كل عضو على حدة كما فصلت كل خلية على حدة ... !

هو قانون واحد يلف الكون كله !. قانون الجزيء والذرة هو قانون المجاميع . . . واللقاح السياسي واللغوي والعلمي والاقتصادي في المجموعات الكبرى والإمبراطوريات واتحاد الولايات ، هو الوسيلة إلى ذلك الأمل المنشود

ولا يتوهمن واهم أنني أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض كلا ... وإنما سيبقى كما هو في حدود الدولة بين الأحزاب والآراء والمذاهب الاجتماعية ... وكما يبقى بين الأسرة الواحدة ، وكما يبقى بين القوى المتنازعة في الفرد الواحد : بين العقل والعاطفة والغريزة لأن الدفع قانون طبيعي كقانون الجذب ... ولكنه دفع لا يفلت من قانون القوة والقهر ، كما هو الحال في الدولة الواحدة القوية التي لا يفلت منها من يريد الخروج عليها

إن نفوس الأجناس وطباعها تتغير تغيراً سريعاً من التمايز إلى الاندماج والاتحاد . فلم يبق في الولايات المتحدة أجناس ، وإنما صارت كتلة واحدة بمرور جيل أو جيلين وبتوحيد اللغة ...

والولايات المتحدة خميرة الحياة الإنسانية المقصودة ، هي نموذج ناقص ولكنه أقرب إلى الكمال ؛ وكان من الواجب أن يحذو العالم القديم حذو هذا العالم الجديد السعيد ، ويترك مواريث التاريخ السيئة وعصبيات الأجناس ونعراتها ، ويتفق على الحد الوسيط الذي يرضي الجميع مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات .

أوربا ولدت أمريكا ... والبنت هنا أعقل من أمها وأسعد . فلا تزال القارة العجوز تحتفظ بأحقادها القديمة ومواريث تاريخها السيء في عالم الحسد والبغض والخديعة والبطش والتنازع . . . ولا تزال تشقى الأرض كلها معها ... بينما أمريكا تسعدها وتجدد الحياة يوماً بعد يوم ، وتنثر الأفراح والمباهج في كل مكان ...

لقد برئت أمريكا من حب الاستعمار والتنازع عليه ، فبرئت من السعار المادي الذي يصاحبه ، وبرئت من الصفات الذميمة التي تصاحب خلق الافتراس ... وصارت حبيبة إلى جميع أمم الأرض ...

اتخذت الطريق المشروع إلى الغنى والثروة ، وهو طريق التجارة والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية ، لا طريق الغصب والغلاب ... فعاشت تجمع وتعيش بما تجمع وتوزع منه على مؤسسات البر والعلم في بقاع الأرض ، ثم لا تفجع فيما تجمع ولا تحترق وتدمر معه كما جرى لأمم أوربا الآن ... !

* * *

لقد خطا الإنسان بإدراكه عقيدة توحيد الله خطوته العظمى إلى الكمال العقلي والقلبي ، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة ، وتوزن أموره بميزان رب واحد ...

وسيخطو خطوته العملية والعلمية العظمى ، حين يدرك « الإنسانية الواحدة » ويؤمن بها ؛ وكما حلت عقيدة توحيد الإله مشاكل العقيدة ووجهت الحياة وجهة واحدة بعد أن كانت موزعة على أرباب متفرقين ... كذلك سيحل الإيمان بوحدة الإنسان مشاكل وعقداً مستعصية ، وتوجه به الأمم وجهة واحدة هي وجهة الخير المشترك ، بدل الخير المتفرق الضيق الأناني ، ووجهة العلم البناني المعمر ، بدل العلم المخرب المدمر ...

لقد كان منطق الفرقة والتنازع المنيف بين الناس معقولاً في الأزمنة الماضية التي كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسفار الطويلة ، واللغات المجهولة ، والثقافات المختلفة إلى حد التناقض ... وكان دور تحكيم الغرائز لا بد منه لحمل ذلك الإنسان الجاهل على التسابق العنيف إلى كشف بقاع الأرض المجهولة ، وتلقي مناقعها الضائعة إذ لم يكن له علم وعقل يغنيانه عن الغريزة . وكان الاختلاف الحاد بين الناس معقولاً لأنه لم يكن هناك أفق عقلي أو علمي أو عملي مشترك بين أمة وأمة متجاورتين بله المتباعدتين ، ولم تكن الظروف لتسمح بوجود ذلك الأفق المشترك إلا عن طريق الحرب التي كانت وحدها هي الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين ، والتعارف بين المتجاهلين ...

أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنازع ضاراً بالجميع قاطعاً للعلاقات التي تنمو في وقت السلم نمواً عظيماً عزيزاً لم يكن له مثيل في العصور الأولى ... وصارت العودة إلى تحكيم الغرائز ارتداداً وانتكاساً في الحياة كانتكاس الرجل الحليم إلى غضب الطفولة القديم ، إذ قد صار في يد الإنسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من أساسها وتسحق براعم نموها وتجعل العمل للحياة ، والسعي لها بعد الحرب عبثاً لا طائل تحته ما دامت الحرب تأتي بعد ذلك لتأكل الأخضر واليابس ولا تبقي ولا تذر

وقد ثبت الآن أن كل ما يصل إليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب على قوى الطبيعة وأدوات ترف الحياة ومباهجها يتحول إلى أدوات دمار وإبادة إذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب وبراكين الحقد الدفين ... فلا أمان على الحياة من شيء مع غضب الإنسان . وقد عاد شعار الجاهلية القديم الذي كان يهتف به المحاربون القدماء ؛ وهو تلك الصيحة : يا منصور أمت ! !

وقد كانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب في العصور المتوسطة قوانين فيها بقية ما على مناطق نمو الحياة ؛ وفيها ذكرى للود القديم والدم والنسب وصلة العلم والفن والعمران ، وكانت الحرب تجد لها في وقت احتدامها ما يخفف آلامها من نبل الفروسية ، ورحمة القادرين ، ووصايا القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحرث والنسل :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها
تذكرت القربى ففاضت دموعها !

أما الآن فإذا بطشوا بطشوا جبارين ! لا يذكرون طفولة ولا شيخوخة ولا مخلفات الفنون والعلوم والآثار الثمينة التي هي ملك الإنسانية جميعها ...

ومن كان يظن أن الإنسان الأوربي العالم الفنان الذي فتنته أحاسيس الحياة وجن بها جنوناً فعبدها في الزهور والرياحين والحب والألحان والعناية بالطفولة ، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجماجم والعظام والأحجار والخرزات ، ولم يدخر في سبيلها مالاً ، وجمع مجموعات النبات والحيوان ، وحرص على استخراج كنوز الأرض ، والتنقي على صفاء في المجامع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية وتبادل تعلم اللغات ، وسكن جميع بقاع الأرض ، وعرف آلام الأجسام والأرواح ، وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة مفقودة تنير له تاريخ الإنسانية التي يعتز بها ... من كان يظن أن من فعل كل أولئك يجرؤ على أن يهدم حاضر الإنسانية بكل ما حمل في طياته من الماضي ، ولا يبالي أن يزهق الإنسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه !!

فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والمجامع والمعاهد والمعابد ؟ أين عالم العقول والقلوب ؟

أين الشعر والفن والرحمة والحب والجمال والخير ؟

أين المعاني التي سجلها الدين والأدب عن الآلام ، ودارت عليها فلسفات وقصص ومسرحيات ؟

أين مؤسسات الرفق بالحيوان ؟

أين كل « الدراما » و « التراجيديا » التي كانوا بها يكون في المسارح ؟

أكانت ملاهي وملاعب لا أكثر ؟ يا لها إذاً من خديعة عبقرية !

ولكن هذه هي الحرب المصرية ... صورة مصغرة من أهوال القيامة ... بل القيامة ساعة ثم تنقضي الحياة ويستريح الناس بالموت إلى حين ... ولكن الحرب المصرية « قيامات » لا عدد لها ... بها يموت الناس ويبعثون ثم يموتون ويبعثون كلما شنت عليهم غارة جوية إلى أن تضع الحرب أوزارها ...

فيا بني الحياة ! أي حياة هذه ! ؟

إن الله أرحم بالناس من أن يجعلهم لمثل هذه الحياة ... والناس أرفع بأنفسهم من أن يبعدوا مثلها ... إنها مرحلة لا بد منها في طريق الإنسانية الشقية إلى الإستقرار والراحة واللقاء الذي لا بد منه بعد الافتراق والتقلقل.

ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطيء الطويل ...

ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو برد الحياة وثباتها واستقرارها ...

ومن بين قسوة القلوب فيها بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف الرحمة والحب ...

لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائماً ابتداء دورة زمنية بالإنسان وانقلاب في أوضاع الحياة ... والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضية وبعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين ...

هذه السرعة التي في الحرب ستكون في السلم ... وكما استحال سيف الحرب إلى مبضع الطب ستستحيل جميع آلات الدمار إلى آلات إنتاج وتعمير ورفاهية

ولا شك أن تشبيه الحرب بحادث المخاض والولادة تشبيه صحيح من كل وجه . . . فكل حرب تلد مولوداً من الطباع والأوضاع والأفكار والآلات والمرافق ... مولوداً يجدد الحياة ويقذف في شعلتها حطباً ويسقيها زيتاً . . . ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم والهزة والخوف ؛ فكل هذه أعراض تصحب حادث الولادة في حياة الإنسان ...

ولن تضيع سدى تلك الأرواح التي ذهبت قرابين للمعاني السامية التي في قلوب الأمم المتحاربة . وإنما هي لبنات في البناء الخفي للوجود الإنساني ... وإنها كلها حية تنظر إلى عراك الجماعات في عالم الظواهر كعراك ذرات تحملها الريح أو حصى يحمله ماء السيل حتى تبلغ مكانها المرصود في بناء الوجود ...

وسواء أوضع حجر في خفاء الأساس أم رفع في علانية القمة ، فالكل بناء واحد ... وتبلغنا الآن أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلا نلتفت إلى الأفراد فيها . وإنما يعلو عنوانها أو ينخفض وهي صورة موحدة ليس فيها توزيع . فتفرح كلها بالانتصار ولو باد في سبيله كثيرون ، وتستاء كلها بالانهزام ، ولو انتصر فيها كل فرد نصراً فردياً وأتى بأعمال البطولة المعجزة

فهل لأصحابنا الفرديين الأنانيين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة على ضوء نار هذه الحرب ، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التي تنتسب إليها حتى يتبينوا أنه لا وجود إلا للمعاني العامة التي هي ملك الإنسانية جميعها ؟

إن هذه النظرة تجعلهم يحملون السلم بقلب عارف بها ، ويحاربون إذا كتبت عليهم الحرب بسيوف كمباضع الأطباء : تقطع لتشفي ، وتقتل فتحسن القِتْلة بدون مُثْلة ولا نية إثم أو جريمة . وتجعلهم خصوماً شرفاء رحماء يحاربون بروح رياضية كأنهم يلعبون ، وتجعل من السيوف ظلالاً للضعفاء والسالمين .

أولئك هم الربانيون المؤمنون بالله وبالإنسان أمنى ودائع الله في الأرض !

عبد المنعم خلاف

أشكر للأستاذ بعبر صادق تقديره الكريم ، وأرجو الله التوفيق في طلب الحق والإبانة عنه .

كلمة حق

أحمد السنوسي الاخصائي في الأبحاث النفسانية جعلني بفضل علاجه رجلا غير ذلك الرجل الذي حطمت أعصابه الوساوس والخيالات فكان مشتت الأفكار يهاب الموت بلا مبرر بل ويراه في كل عمل يقدم عليه وفي كل طريق يسير فيه حتى غدت حياته جحيم لا يطاق

والآن وبعد خمسة سنوات قضيتها في آلام قاسية شعرت بحياة سعيدة هانئة بعد مدة قصيرة من العلاج النفساني . فنصيحتي لكل شخص يرى نفسه كما كنت أن لا يهمل زيارة الأستاذ أحمد السنوسي الخبير في الأمراض النفسية .

مصطفى أحمد شيبه الحجازي

مدرس لاسلكي سابقا